دولة الرعاة في مصر

(الهكسوس)

للمؤرخ الخفق جرجي افندي بك

روى المؤرخون الاقدمون ان امةً غريبة اجتاحت القطر المصري واستبدّت باحكامه واقامت فيه القرون الطوال ودعيت دولتها بدولة ملوك الرعاة (الهكسوس) وما زال هذا القول مرعيًّا حتى ذهب بعض الباحثين الى ان تسوُّد الاجنبي في مصر من الاحاديث الموضوعة ولو قال بهِ مانيثو مؤرخ المصريين وسواهُ . وما يرجح قول هؤلاء المنكرين قائمًا حتى قرئت الآثار المصرية فتبين منها ان الدولة المسماة بالوسطى انما كانت اجنبيَّة الصبغة فجاء ذلك مطابقًا لنصوص الرواة القدماء. على ان اتضاح هذه الحقيقة لم يكشف القناع عن شأن اولئك الرعاة بل ظنّ الامر مجالاً للاعلام الذين ينضون ركاب البحث والاستقراء لادراك الخفيات فتبارت فيه اقلامهم ويرزت فوارس ايحاثهم استطلاعًا لمعرفة الامة التي نبغ الرعاة منها ووقوفًا على شأنهم عقيب فتحهم لبلاد مصر

ونحن نتابع اولئك الجهابذة الكرام الذين يبذلون جهد الاستطاع في تجريح الوقائع واستنتاج الحقائق والاخذ بطرق الاستقراء والتمثيل حتى يبين الخفيّ تشبهًا بهم ان التشبه بالكرام فلاح

وليس خفيًّا ان البشر اختلفوا منذ بدء الوجود بالمهاجرة في التماس المعاش واختيار مواطن اخرى غير ألِفي القومها وذلك لدن تعرضهم في الاولى لكوارث موضعيَّة او لقلة وجدهم فيها بسبب ازدحام الساكن وكان معظم الراحلين من قطر يتخيرون احسن منهُ بقعة

ومصر ولا تزيد الاباء بها علمًا بلدٌ خصيب كثير الخير وافر الكلا ينساب النيل في جوانبهِ فيكسبهُ نماء وثراء واهلهُ ذوو دعةٍ وسكينة يرغب المهاجر في مجاورتهم ولذلك شدت اليها رحائل المهاجرة منذ العصور الاولى ونزحا الراغبون على الرحب والسعة وكان اول الملتجئين اليها على ما في الآثار القديمة آل عامٍ وهم سبعة وثلاثون نفرًا من بيتٍ واحدٍ وقد رُسموا حاملين صغارهم ومحملين اشياءهم على الأتن

وتاريخ مهاجرتهم واقع في عهد الدولة الثانية عشرة التي تولت مصر حوالي القرن الحادي والثلاثين قبل المسيح وظلت في سيادتها نحوًا من مئتي عامٍ وكان فراعنتها من اشد ملوك مصر

اهتماماً بها حتى حسب بعضهم ان زمان هذه الدولة ارفع ازمنة التاريخ المصري اثراً واعزها تمدناً واكثرها عمراناً الاَّ ان عزة ذلك الشأن لم تتصل بالدولة الثالثة عشرة لانها قضت في السيادة نحواً من قرنين زعلى رأي بعضهم) وهي غير محدثة اثراً مذكوراً بل كأنها لم تكن في عالم الاحياء ولو لم يحفظ البردي اسماء فراعنتها لظلت ابد الدهر نسياً منسياً او فراغاً في التاريخ . واحتار الباحثون في هذا الخمول بعد ذلك الشأن وذهبوا في اسبابه مذاهب شتى حتى حسبها بعضهم صادرة عن قلاقل مرضية معظمها ناجم عن تزاحم المدعين على العرش ولكن ذلك اذا صح يكون من غرائب وقائع الدهر لان بقاء البلاد امداً طويلاً على حالها من القلق والاضطراب حدث لا مثيل له في التاريخ

وكان في تلك الاونة قوم من عرب البادية يسكنون اطراف سورية وبلاد العرب ويزدادون حولاً وعزاً حتى صارت قوتهم الى المنعة فتطاولوا على القطر المصري وتجاوزوا الحد اليه من صوبه الشرقي وكان اناس منهم يدخلون البلاد فيقيمون بين الاهلين ويخالطونهم ويجرون تجراهم في الارتزاق فكثروا وصارت لهم كلمة مطاعة وما لبثوا ان اشتد ساعدهم فلم يخفوا سحنتهم السامية بل ظلت غالبة في مظاهرهم حتى ان بعض القرى والمساكر الواقعة في ذلك الصوب من القطر المصري برزت بالوسم السامي كقولك مكدول وسكوت واثام وامثالها واعظم من هذا ان المصريين انفسهم صاروا يمزجون لغتهم القديمة ببعض الكلمات الشرقية وناهيك انهم دانوا لمذاهب الاسيويين وزاد عداد اربابهم المصرية بما حمل القوم اليهم من عباداتهم ومع امتزاج المصريين باولئك المشارقة بقي بينهم شيء من التفرقة فادى بهم الى الصيرورة نصفين هذا مصري قديم وذاك شرقي دخيل

ولا ينكر على الشرقيين احتشاكهم بوادّة ابناء جلدتهم وبقاؤهم على رغبتهم في نصرتهم ليكونوا واياهم يداً واحدة على المصريين الاَّ ان اعتزاز شأن المصريين في دولتهم وشدة حوطهم وتجمع قواهم في طيبة واستعدادهم لتوجيه القوة المدربة الى الوجهة المقصودة كل ذلك حال دون الغارة المنوية ولئن لم يقطع حبل المهاجرة ولم ينقص عداد المتكاثرين حتى ضعفت الدولة عن حفظ بيضة الملك وتداعت قواها وظهر الوهن في بناها والاَّ فان قبائل البدو معها تكاثر عديدهم وتكاثف صفهم وايّا كانوا من الناس لأحط من ان يناوئوا المصريين متى اجتمعت كلمتهم واتحدت وجهاتهم وكانت عساكرهم مدربة والفساد عنهم بمعزل . وما زال ذلك دأبهم من العزة والمنعة عن مطمع العدو فيهم حتى انشب الشقاق فيهم براثنه وحتى اصبحت دولتهم الرابعة عشرة لا تقوى على نصرة القرعون الناهض بها

وتتابعت الاحن على الدولة وظهر الضعف في قواها ايام لم تقوَ على خمد شوكة الثائرين عليها وكبح الشاغبين المستقلين عنها في غربي الدلتا فكان ذلك مدعاةً لغارة المشارقة على قول كأنهم ضمعوا بما رأوا من تراخي البلاد ووهنها

وذهب لانورمان مذهباً يستفاد منهُ ان الدلتا كانت لذلك العهد قد صارت الى عداد الدولة باستقلال غربيها وبنزول بعض المشارقة الرحّل في شرقيها ولعل هذا وفاق ما ذهب اليهِ مايشو من ان الدولتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة كانتا من الرعاة الشرقيين حسبان اعتبار الرحّل دولةً معاصرة

وكيف كان الحال فقد كان امتزاج الشرقيين بالمصريين وضعف الدولة المصرية آيلاً للغارة الكبرى

ولا خفاء ان سبيل الاسياويين الى مصر كان على تلك البقعة الضيقة من الارض التي كانت فاصلاً بين اسيا وافريقية وقد اصبحت لهذا اليوم ترعةً تمخرها البواخر اريد بها برغاز السويس ولقد كان المصريون منذ اجيالهم الاولى يشنون الغارات تباعاً دراكاً على الامم النازلين في برية سيناء ليبقوهم دائبين بطاعة الفراعنة ويحرزوا ما كان في مناجم تلك البلاد من المعادن الثمينة ولطالما رأينا من اخبار ملوك مصر نهضتهم لتكتيب الكتائب وتعبئة الجيوش سيراً على الامم الذين سموهم انو وبت ومنتو وكيف انهم كانوا يطلبونهم على الاستئثار بمنابع القطر لان شأن اولئك الامم لم يكن على شيء من المنعة والعزة فكان ضعفهم سبيلاً لاعتزاز الشأن المصري فيهم وابقاء تجار مصر وصناعها في امن من الطارقات. الاَّ ان استمرار ذلك المغنم في قبضة المصريين لم يكن الاَّ الى حين اذ تكاثرت في ذلك الصوب جموعٌ من امةٍ سماها الاثر سوختي وشرعوا يزدادون حولاً ويتنافسون اقتداراً حتى خاف اضبعات الاول (اعظم فراعنة الدولة الثانية عشرة) على تخومهِ الشماليَّة الشرقيَّة فبنى هنالك سوراً او قلعةً لتقوى جنودهُ بها على صدّ الغارة الاَّ انهُ ما لبث ان انضم الى السوختي قبيلتان آخريان احداهما سموها الخارو والاخرى الشاسو وقالوا ان الخارو اهل تجارة وقد اتخذوا الى ذلك الموضع من سواحل فلسطين او من بلادٍ ابعد منها شمالاً تمتدّ على قول حتى نهر العاصي وقالوا ان الشاسو قبيلة من الرحل كان مسرحهم في بقعةٍ من الارض واقعةٍ الى الجنوب والجنوب الشرقي من البحر الميت وذهب غيرهم إلى انهم من العرب الذين كانوا يتنابون المراعي بين ادوم وفلسطين. والمعروف عن امة الخارو انها كانت على صلة تجارية مع مصر فكأن تجارها رأوا غنى مصر ووفرة خصبها ونضارة مراعيها فشاقهم ذلك وادّى بهم إلى التعاضد بابناء جلدتهم الشاسو

والنزول الى بلاد سيناء ليشنوا الغارة منها على مصر ويتنعموا فيها باسباب الحضارة والعمران واكتساب الحلال

على ان تلك الرغبة وذلك القصد لا يدفعان بالامم عن اوطانها جمهرةً واحدةً ولا يسيران بها مدًى بعيدًا ما لم يعوزها شأنٌ آخر لكون البلاد المهجورة من اسباب ذلك الرخاء جملةً ونضوب ماء مكاسبها فحلها والحال ان القطر السوري الذي كان مباءة اولئك الاقوام ليس بالقفر البلقع ولا بالبلد البور لينبو بساكنيه ويحملهُ على المهاجرة لغير سبب آخر

بقي ان نرى في ذلك السبب رأيًا مستمدًّا إلَى الحقائق التاريخيَّة والآراء الموثوق بها فنرى ان نشأة ذلك السبب بعيدة عن موضع الواقعة بحيث لم تكن المهاجرة لالتماس المزيد في المكسب ولا لضيق القطر السوري عن استيعاب ساكنيه بل لحادثٍ واقعي جرى في اواسط اسيا ذلك ان الدولة الكلدية كانت قد عنت للغزاة العيلاميين تحت امرة كدرلعومر فلما افضت الدولة الى كدرلعومر مدَّ هذا السلطان العظيم رواق دولته إلَى كثير من البلاد حتى انضم اليهِ ثلاثة من الملوك هم امرافل ملك شنعار واريوك ملك الاسار وتدعال ملك جريم

ومن علم ان شنعار هي كلديا العليا والاسار هي كلديا السفلى وان الجويم هم قبائل البدو الرحل السَّاربون في القفر الواسع بين بلاد النهرين وسوريا ادرك شدة حول تلك الحلفة وفقه انهم ما تألبوا الاَّ لغزو الممالك المجاورة وسلب متاعها ولذلك فانهم لما زحفوا اضطربت القلوب وفرَّ الامراء والاعيان من سبيلهم قاصدين الالتجاء الى سوريا وكان من هؤلاء ابرهيم الخليل الذي رحل بنويهِ الى سوريا ومصر ثم خرج من مصر الى دمشق واقام فيها حينًا من الدهر

وبلغت اخبار هذه الغارة ملوك فلسطين فتألب منهم خمسة هم ملوك سدوم وعمورة وادمة وصبويم وصوغر وواقعوهم عند عمق السديم في الموضع الذي عُمرتهُ بعد ذلك بحيرة لوط فغلب ملوك فلسطين ودانوا للظافرين ولم يذكر في هذه الموقعة احدٌ من ملوك السوريين الساكنين في شمالي القطر مع انهم من اهل العزة وشدة البأس ولطالما كان الغزاة من الشرقيين يلقون منهم دفاعًا شديدًا

على ان خضوع الفلسطينيين لم يكن طويل الامد لانهم شقوا طاعة الظافرين في السنة الثالثة عشرة لغلبهِ عليهم فعاد كدرلعومر بمن كان معهُ من الملوك وشرع يضرب القبائل العاصية حتى نكَّل بهم تنكيلاً ثم حارب ملوك فلسطين وظفر بهم

وذكر الكتاب الاقدس اسماء القبائل الذين لهزم الغزاة في هذه الحروب فكانوا الرفائيين والزوزيين والايميين والحوريين والعماقة . وورد عن بعض الباحثين وفي طليعتهم العلامة سايس

ان الحوريين كانوا يسكنون الحثيين الجنوبيين في جبال فلسطين فليس بعيدًا ان يكونوا في جملة الذين قهرهم الظافرون

فاذا تبين ذلك اتضح ايضًا ان كثيرًا من القبائل والافخاذ النازلة في القطر السوري هاظم اقتدار الغزاة منذ الحملة الاولى او زحمتهم جموع الفارين من وجوه الظافرين فاتجهوا جنوبًا واجتمعوا في شبه جزيرة سينا على مقربة من مصر فتمكن بعضهم من دخول القطر وظل الآخرون في موضعهم يتسمعون اخبار اوطانهم فبلغتهم اخبار الكسرة الاولى ورجوع الظافرين ثم عرفوا بالهزوة الثانية وباتجاه قوى الغزاة صوبهم حيث ضُرب الحوريون الساكنون جبل سعير الى فاران فاوجسوا من اقتراب العدو العظيم اليهم لا سيما وان عددهم قد زاد بما انضم بهم من فلّ المغلوبين حتى حسبوا انهم يقعون من نفوس الظافرين موقعًا يدفع بهم الى الرغبة في خفض شوكتهم فراعهم الحسبان ورأوا من الجهة الاخرى مصر وافرة الخير خصبها وغناها فقصدوها واتخذوها لهم محتلاً

ولعمر الحق لو كانت مصر يومئذٍ على سابق حالها من تجمع قواها واعتزاز دولتها وتدرُّب عسكرها وانتظام شؤونها لما خطر لاولئك الاقوام ان يتجاوزوا لها حدًّا اذلاً يلقوا بانفسهم الى التهلكة و يكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ولكنهم عرفوا ان حكومة البلاد كانت لذلك العهد اضعف من ان تلمّ الشعث وان تخضد القوى الداخلية التي كانت تنمو فيها فلا تزداد حولاً عن اضعفها ولكنها تزيد الضعف بالتفرقة وانها اي تلك الحكومة لتجزئها وديب الشقاق بين ذويها اصبحت كالفوضى وزادها الضعف خمولاً فنمت في ارضها دولة او دولتان هي او ما الى اولئك الملتجئين اقرب نسبًا واعزُّ شأنًا

وهذا الرأي لا يُصدَم من التاريخ ثبتًا ألا ترى ان مانيثو لم يقطع العمالق بمعرفة الامة الغالبة اذ قال مرةً انها فينيقية وزعم في موضع آخر انها عربية . اما هيرودوتس ابو التاريخ فسمى القوم اسمًا مؤدّاهُ الراعي الفلسطيني وفي الاسم اشارةٌ الى الظن السائد يومئذٍ بين عامة المصريين من ان الرعاة كانوا من فلسطين

اما المؤرخون المحدثون فيحسبون القوم من الكنعانيين او السوريين او الحثيين فالمؤرخ لا نورمان يزعم انهم خليط من الرحّل الذين اجتمعوا هنالك من سوريا وبر العرب. وورلنسن يقول انهم من القبائل النازلة في القطر السوري ويرجح القول بانهم من الحثيين . ومذهب المؤرخ مايير مؤيّد لرأينا تمامًا اذ يقول ان في غضون ذلك نهضت قبائل سوريا الرحّل لتقدمهم على الغالب قبيلة الحثيين واجتازت التخوم المصرية مدفوعةً الى ذلك بناء الممالك العظمى التي

اعتزّ شأنها في ما بين النهرين الفرات ودجلة ولما دخلت القبائل مصرَ ملكت مراعي الدلتا الخصيبة وشيّدت فيها دولة الرعاة الخ

اما القول بعروبيّة الرعاة فليس نظرٌ ويغلب على الظن انهُ قيل تخمينًا لا سيما وان تحليل كلمة هكسوس الى حيك شاسو وتفسيرها بملوك العرب ممّا يخالف رأي مانيثو صاحب القول اذ انهُ فسّرها بملوك الرعاة فالتفي بذلك ما ارادهُ المفسرون من بيان الجنسية ثم لو كان الغزاة عربًا لصرّح بنسبتهم مؤرخو العرب تفاخرًا بهم والحال ان اولئك المؤرخين صرحوا بنسبتهم الى عالقة الشام وحسبك في ذلك شاهدًا مقال العلّامة ابن خلدون الذي يستفاد من روايته ان المصريين كانوا في خلف وحرب وان احدهم ايبن من نسل اتريب بن مصر لحق بالعالقة في مشارق الشام واستصرخهم ليجدوه على حوريا فانجدهُ الوليد بن دومغ وجاء معهُ وملك ديار مصر وهؤلاء العالقة قريبو النسب لاخوانهم الساكنين في بلاد العرب

وليس خفيًّا ان مؤرخي العرب اخذوا الروايات القديمة عن اليونان وعما يعلمون من حوادث اوطانهم واخوانهم في العروبة وكلهم متفقون على ان غزاة مصر في تلك الاونة لم يكونوا عربًا بل سوريين. والعلّامة ابن خلدون صرّح باسمهم وبموضعهم من الشام وان عاصمتهم تدمر ناهيك ان المصريين لما اشتد ساعدهم فطردوا الغزاة من بلادهم اتجه مؤلاء صوب سوريا فلحقوا بهم الى هناك وشرعوا منذ يومئذٍ يشنون عليهم الغارات تباعًا دراكًا حتى دانت لهم سوريا فنكوها بجملتها على ما ظهر من الاثر

فلو كان الذين ملكوا مصر من العرب لما ثأر المصريون لانفسهم من السوريين وتركوا الذين ساموهم خسفًا يرتعون في بحابح الراحة والنعيم

سوريا

ذهبت السائحة الشهيرة مس بشوب الى بلاد سوريا سنة ١٨٩٤ ثم زيرتها اربع مرات بعد ذلك وآخر مرة في العام الماضي وجابت اكثر انحائها وكتبت في وصفها كتابًا كبيرًا في مجلدين موضحين بالصور والخرائط ولم تغفل وصف شيء من اكواخ الساكنين الحقيرة الى قصور الملوك الفاخرة ووصفت اهل البلاد وصفًا مسهبًا وافاضت في وصف اخلاقهم وعوائدهم. والبلاد شمالية باردة كما لا يخفى لكن هواءها طيب وتربتها جيدة ومائها مستقبل حسن اذا عرف اهلها ان ينتفعوا باساليب العمران الحديث. قالت والبلاد الآن واقفة بين روسيا وانيابان كلٌّ منهما تسعى لأن يكون لها السيادة عليها